الفصل الثاني
علماء التعريب بين الأمس واليوم

علماء التعريب القدماء

تمهيد:

ما من أمة سبقت العربَ في تصنيف كتب ضمَّت المعرب والدخيل من الألفاظ؛ ذلك أن حركة التأليف التي بدأت منذ مطلع القرن الثالث الهجري شملت معظم العلوم، في زمان لم يكن العالم يعرف ما الكتاب؟

وسببُ تدوين المعرب والدخيل اهتمامُ المسلمين بالقرآن، والغيرة عليه، والإحاطة بكل العلوم المنبثقة عنه، وتساعد على فهمه. إذ ما من علم اهتم به العرب والمسلمون وألفوا فيه إلا وأساسه القرآن، كالبلاغة، والنقد، والقراءات، والنحو، والصرف، وفقه اللغة، والصوتيات، والخط، والمعجمات، وطبقات الرجال، والتراجم عامة.. كلها صُنفت لخدمة القرآن وعشاقه.

وقد كان علماء التفسير أول من نَبَّه إلى المعرب والدخيل حين عمدوا إلى تفسير غريب القرآن كالطبري وابن كثير. ولا يجوز تناسي الدَّور الذي بذلوه في هذا المجال على رغم عدم تركيزهم على اللفظ من حيث هو معرب أو دخيل. وفعل مثلهم بعضُ علماء الحديث مثل ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وكانوا يشرحون بعض لفظ القرآن في معرض شرحهم لمفردات الحديث.

ونهدَ بعد ذلك علماء اهتموا بشرح الغريب مثل العماد الإصبهاني في «المفردات»، والسمين الحلبي في «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ»، بأربع مجلدات من تحقيقي.

وقد أقبل العرب المسلمون على التصنيف يؤازرهم المسلمون من غير العرب كالفرس والترك. وكان لهؤلاء الأعاجم دور مهم في التأليف بالعربية حباً بالقرآن أولاً، ولمحاولة التفوق على العرب في بعض ميادين العلم. فرأيناهم يؤلفون في اللغة، والأدب، والنحو، من أمثال: سيبويه، نفطويه، الطبري، الثعالبي، الزمخشري، الباخرزي.. ولم نرَ أحداً منهم صنف كتاباً واحداً بلغته الأصلية، غير أنهم استخدموا بعض المعرب والدخيل من لغتهم، من غير أن يشرحوا هذه المفردات مع الأسف.

ومع أهمية هؤلاء وهؤلاء فإننا نرى أنهم حصروا اهتمامهم بالغريب من غير أن يركزوا على اللفظ من حيث هو معرب أو صريح، كما أنهم ما كانوا يحسنون غير العربية. ولم يرجعوا إلى معجمات الأعاجم لمعرفة الأصول والمعاني لعدم وجود معجمات في تلك اللغات أصلاً؛ فلا نجد معجماً فارسياً، أو سريانياً، أو تركياً، أو عبرياً عند تلك الأمم. والعرب سبقوا الأمم كلها في صناعة المعجم اللغوي، حتى مَن كان منهم أعجمياً كالزمخشري الذي ألف «أساس البلاغة»، والفيروز آبادي (ت 817 هـ) الذي ألف «القاموس المحيط»، لم يفكرا أن يصنعا معجماً في لغتهما. غير أنهما أفادانا كثيراً في شرح المفردات المعربة، في سياق شرح المفردات العربية.. وهو قليل. فكانا خيراً من ابن منظور العربي في «لسان العرب» من هذا المنظور فقط.

وعلى رغم حرص العلماء العرب على جمع المعربات، فإن فئة من المعجميين ما كانت ترى جدوى من ذكر المعرب والدخيل في معجماتها، لأنها رأت أن هذه الألفاظ دون مرتبة المولد. وما داموا لم يعترفوا بالمولد ولم يذكروه في المعجمات، فكيف يذكرون المعرب والدخيل؟ ولهذا ضاع عدد من المفردات المعربة في العربية، وتناساه اللغويون، إلا ما ثبت في النصوص الشعرية والنثرية.

إضافة إلى أن فئةً محبة للعربية رفضت معظم المفردات المعربة، وأرجعتها إلى العربية، وهم كذلك حاولوا هذا بكل المعربات في القرآن، حباً منهم لقدسية القرآن والعربية. لكن هذا الحب طغى على الروح العلمية، وما ذلك إلا لجهلهم باللغات الأخرى.

أما المسَلِّمون بوجود المعرب الذي لا يمكن حَجْبُه فقد استطاعوا فصل المفردات الغريبة عن المفردات الفصيحة بسليقتهم وغَيرتهم وإحساسهم. وشرحوا معانِيَها على قدر استعمالها العربي، من غير أن يوفقوا تماماً لمعرفة أصول هذه المفردات ومعانيها الأصلية. ولم يألوا جهداً بالبحث عن أصول بعضها ومعانيها، وذلك بسؤال الموالي، والمترجمين، والتجار، والحجاج، والوافدين على مكة، والبصرة، والكوفة، والشام. أو كان ما عرب أسماء سِلع وفدت بأسمائها. لذلك كانت المعاني محدودة، أو قاصرة، وأحياناً مُجانبة للصواب.

وفي زحمة الحركة العلمية استمرت محاولات بعض علماء التعريب بكشف بعض المعربات وجمعها ضمن صفحات من كتبهم. كما فعل الثعالبي (ت 430هـ) الفارسي في كتابه «سر العربية». غير أنه قصر علمه على إحصاء جانب من المعربات ذات الأصل الفارسي من غير أي تعليق يُذكر، وكذلك فعل التراجمة السريان عن اليونانية. أو من كان العالم من ذوي الثقافات الواسعة كالجاحظ الذي كان على معرفة محدودة بالفارسية.

وتحضرني نادرة جرت معي عام 1966 حين عدت من جامعة طهران، متباهياً بحيازتي درجة الدكتوراه في الأدب الفارسي. فسألني أستاذي سعيد الأفغاني: - وكان آنئذٍ عميداً لكلية الآداب - أتعلمت الفارسية جيداً؟ قلت: نعم. قال: ذكر الجاحظ في أحد كتبه أن في الفارسية ساكنينِ متتالیین في كلمة واحدة، فهل هذا صحيح؟ قلت: كلا يا سيدي، فالجاحظ ما كان يعرف الفارسية. عجب أستاذي وسألني ساخراً: فماذا تقول إذاً في شاهد الجاحظ «ماسْتْ»؟ فقلت: ماست معناها اللبن، وهي شاهد على أنهم يلفظون ثلاثةَ سواكنَ لا ساكنين، شريطةَ أن

يكون الساكن الأول حرف علة، والثالث الحرف الأخير، لأن أواخر كلمهم ساكِن، والساكن الثاني يقع بينهما. ارتاح الأفغاني - وهو أفغاني! - لإجابتي وقال: قدِّم أوراقك للتعيين.

ومن علامات عدم معرفتهم قولهم عن لفظ معرب: هو فارسي أو رومي، أو هو فارسي أو عبري أو حبشي.. وهذا تناقض طبعاً. ومن ذلك أيضاً قول بعض المعجميين: قيل: هي أعجمية. أو قيل: ليست بعربية محضة، والله أعلم بالصواب.

ونرى كذلك علماء النحو حين كانوا يقعون على لفظة معربة، ولم يستطيعوا معرفة أصلها، أولوها تأويلات من اجتهادهم. من ذلك:

اللهمَّ: فنراهم حللوها وأعربوها بتأويل واحتمال؛ فقالوا: الميم عوض من «يا» النداء. ثم توقفوا طويلاً عند «يا اللهمَّ». في حين أن اللفظة العبرية أصلها «إلوهيم - Eloheem» ومعناها في لغتهم: الآلهة، استخدموها حين كانوا وثنيين. وظلت في لغتهم حتى بعد أن عبدوا إلٰهاً واحداً. ونقلت إلى العربية في الجاهلية، وجعلوها عربية صميمية.

وَيْهِ: لم يدرك علماء النحو واللغة أنها من علامات النسبة في اللغة الفارسية؛ فسيبويه مركبة من «سيب: تفاح» و«ويه» أي التفاحي.

صراط: كلمة لاتينية الأصل من strata أي الطريق الكبير، الطريق المعبد. واستخدمها العرب بمعنى مقدس في القرآن من قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ﴾ [الأنعام: 126]، وبمعنى النهج مجازاً.

آمين: اختلف علماء النحو بها، فعدَّها بعضهم اسم فعل أمر بمعنى استجب. واشتقوا منها فعلاً فقالوا: أمَّنَ فلان، أي قال: آمين. ومنهم من رأى أن معناها: يا الله. واللفظة ليست عربية لعدم وجود وزن «فاعيل» في الأوزان الصرفية. وهي في الأصل لفظة فرعونية من «آمون» اسم أحد آلهتهم الذي انتشرت عبادته في الألف الثاني قبل الميلاد، وكانوا ينحنون له ويلفظون اسمه «آمون». وعبادته قريبة من التوحيد.

وهناك كتب علمية كان لها دور في رصد التعريب وشرح معاني المعربات، غير ما ذكرنا من كتب التفسير، واللغة والمعربات، وكانت معانيها أقرب إلى الصحة من غيرها. وكان لهذه الكتب دور في شرح المفردات من منظار مفهومها العلمي مثل كتب الطب، والبيطرة والبَيْزَرة، والفلسفة والمنطق. وكثير من هذه المفردات مما لم يسلكه اللغويون في كتبهم، لأن مفرداتها كانت محصورة في إطارها العلمي الضيق، مثل «الجامع لمفردات الأدوية» لابن البيطار، و«قاموس الأطبا وناموس الألبا» للقوصوني. وكتب في السياسة والإدارة مثل «مُعيد النعم ومبيد النقم» للسُّبكي. لكن مساعي هؤلاء وغيرهم كانت محدودة جداً.

ومن العلماء القدماء:

الجواليقي وكتابه:

هو موهوبُ بنُ أحمدَ الجواليقيُّ (ت 540هـ) من أهل بغداد. وهو عربي لكنَّ نسبته فارسية للجُوَالق، ولعل أباه أوجدَّه كان يتاجر بها. عاصر أعلاماً مشهورين وأخذ عنهم كأبي القاسم بن البُسْري، وأبي طاهر الأنباري، والسرّاج صاحب «مصارع العشاق»، والخطيب التبريزي إمام اللغة في زمانه. له عدد من المؤلفات، وأهمها كتابه «المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم»[1].

وهو أولُ مَن فكر بصناعة كتاب متخصص بالمعرب والدخيل في العربية. قال في مقدمته: «هذا كتاب نذكر فيه ما تكلمتْ به العرب من الكلام الأعجمي، ونطق به القرآن المجيد، وورد في أخبار الرسول (ﷺ) والصحابة والتابعين.. وذكرتْه العرب في أشعارها وأخبارها لِيُعرف الدخيل من الصريح».

فقد أوضح الجواليقي بهذه الأسطر أنه جمع فيه المعرب كلَّه حتى زمانِهِ؛ ضمَّ فيه ما ورد في القرآن الكريم، والحديث النبوي، وكلام الصحابة والتابعين، وما

(1) طبع المعرب بتحقيق أحمد محمد شاكر في دار الكتب المصرية سنة 1361 هـ، محتفياً من طبعة لايبزيك الأولى عام 1867م.

جاء على لسان العرب، وفي شعرهم وأخبارهم. وهذا عملٌ جليلٌ يُحمد عليه ابتكاره ومجهوده، وزاد عليه جودةُ أسلوبه، واستشهاده بالآيات والأحاديث والشعر، وبذل فيه همته بالشرح، ورتَّبه بحسب الحرف الأول للكلمة المعربة على طريقة المعجم، من غير أن يَذكر أنه وضع معجماً، وجمع فيه ثمانِ مئةٍ وثمان وثلاثين لفظة.

وبدأ كتابه بوضع بعض القاعدات والملاحظات التي تساعد الباحث على كشف المعرب من الصريح، وهو كذلك أول من قعَّد للمعرب، ووضع منهجاً استنتجه من دراسته لما جمع ورصد وتتبَّع.

وذكر أنه جمع مادته من الثقات، والرواة، ومما سمع وقرأ. وقد كان أميناً في نُقوله وأسماء مصادره. وممن ورد اسمه في كتابه: أبو حاتم، الأصمعي، ابن دُريد، سيبويه، أبو علي الفارسي، شَمِر، الجوهري، ابن قتيبة، الأزهري، الفراء، ثعلب، المازني.. وكان كثيرَ النقل من جمهرة ابن دُريد، وصحاح الجوهري، وقد ينقل منه ولا يذكر ذلك. أما شواهده الشعرية فكانت قرابة أربع مئة بيت لأشهر الشعراء حتى زمانه.

وأمانته العلمية دفعته إلى ذكر أسماء رواته وأسماء مَن رووا له أو نقل عنهم؛ فيقول مثلاً عن آذربيجان: «وأنشدني عن القصباني، عن محمد بن أحمد الخراساني، عن الطُّوماريِّ عن المبرد للشمّاخ». وكقوله عن الأَسْبَذيين: «وبلغنا عن الحَرَبيِّ قال: حدثنا محمد بن أبي غالب قال: حدثنا هُشيم قال: أخبرنا داود عن قُشير بن عمرو، عن بَجالةَ بن عَبَدة قال: قال ابنُ عباس..». وهذا غاية في الدقة العلمية التي يتحلى بها عالم جليل مبدع كالجواليقي، الذي يَتَّبع الأمانة في نقوله.

غير أنه قد يذكر الرواية من غير تسمية الراوية أو صاحب الخبر، وكثيراً ما نقع في كتابه على قول: «وقال بعض أهل اللغة»، وهو يعني الجوهري أحياناً. أو يقول: «وقال» ويريد ابن دُريد. أو يقول: «قال قومٌ من أهل اللغة»، ولا نعرف

من هم. أو يقول: «ويقال»، هكذا بصيغة المجهول، أو قوله في الأَلوة: «ذكر أبو عبيد أنه معرب».

ومعظم كتابه هذا مما جمعه من هؤلاء الثقات، من غير أن يبين صحةَ أقوالهم أو مدى صحتها، كقوله: «قال ابن دريد: الخزرانق: ضرب من الثياب، زعموا أنه فارسي معرب. وقال قوم: الخزرانق: الوبر الذي أتى عليه الحَول»، ويسكت من غير تعليق على هذا الزعم وهذا القول. لكنه قد يُبدي رأيه أحياناً فيما ينقل، كقوله عن «الخوان» بعد نقل الرواية: «والصحيحُ أنه معرب».

لا تدلُّ رواياته هذه على أمانة علمية وحسب، بل تدلُّ كذلك على عدم معرفته لأيٍّ من اللغات الأعجمية، ولا على اللغة الفارسية إحدى قنوات الثقافة في العصر العباسي. وأراني مضطراً لأن أذكر جانباً مما أُخذ على الجواليقي سواءٌ من حيث منهجه ومضمون كتابه:

1 - اكتفى الجواليقي في ترتيبه للألفاظ بالحرف الأول فقط. وكان يفضِّل علمياً - وهذا معروف في عصره - أن يرتب اللفظة بحسب الحروف الثلاثة الأولى لكمال الدقة التي تحَلى بها في كتابه. فهو يرتب مثلاً في الباء: بِرنساء، فبرسام، فبرق. أو يرتب في الجيم: جَلَوبق، فجرنْدَق، فجوق، فجرامِقة. وقلَّده الخفاجي في هذا.

2 - أغفل أصولَ بعضِ الألفاظ لشهرتها في زمانه، أو لعدم معرفته لها، مثل كلمة «كَاوْميش» ومعناها الجاموس بالسنكريتية، واكتفى الجواليقي بقوله: «أعجمي» ومثله فعل مع «جالوت». وفي تعريفه للجاديِّ يقول: «أعجمي معرب»، لكنه يضيف هنا المعنى فيقول: «وهو الزعفران».

3 - أرجعَ كثيراً من المعربات إلى الفارسية، وإن لم تكن كذلك، معتمداً على أن معظم المعربات حتى زمانه من الفارسية. ولعل جهله بإحدى اللغات على الأقل أوقعه في مثل هذه السقطات مثل الأَبيل: الراهب، وهي سريانية، والدينار وهي رومية. وقوله في الباسور: «وأحسب أن أصله معرب»، وهذا كلام ابن دريد.

4 - اضطرب مراراً في شرح معانيه وعَزْوها؛ ففي حديثه عن البَبْر يقول: «وأحسبه دخيلاً». ثم يستدرك فيقول: «والفرس تُسميه بَفْر». ولا أعلم من أين جاء بهذه الفاء، وهو عندهم بباءين؟ وكذا تعريفه للأَنْبجات قوله: «وأظنُّه معرباً»، مع وضوح عجمتها. وقوله في رُبّان المفينة: «والربان: صاحب سُكان المركب البحري، لا أدري ممَّ أخذ، إلا أنه قد تُكُلِّمَ به»، واللفظ فارسي معناه الأصلي حامي الطريق وممتلكه. أو قوله: «رومانس بالرومية»، هكذا من غير تعليق، وهو اسم علم كان العرب يسمون به نساءهم، وهو اسم أمِّ النعمان بن المنذر. وجره اضطرابه هذا إلى ذكر اللفظ المعرب وتحديده من غير شرح، كقوله في الخَلَنْج: «فارسي معرب، وقد تكلمت به العرب». والخلنج في اللسان: شجر تُتخذ من خشبه الأواني.

إن اضطرابه هذا في شرح بعض المفردات، أو ذكره إياها غُفلاً من غير شرح دليل واضح على جهله بالفارسية نفسها، ناهيك عن غيرها.

5 - تسرَّعَ بدعوى عجمة بعض الألفاظ من غير تثبت. من ذلك تعريفه بالزعرور: «وأحسبه فارسياً معرباً»، مع أنه يعلم أنَّ حرف العين من خصائص الألف باء العربية. ولم يذكر أنها منقولة عن «زالزالك» الفارسية، أو احتمال أنها عربية.

6 - كانت شواهده الشعرية دقيقة، وتدل على درايته ودقته. غير أنه قد اطمأنَّ في بعض الأبيات إلى رواية بعض اللغويين من غير تثبُّتٍ؛ فعزا البيت إلى غير صاحبه، ومثل هذا يقع به الثقات أيضاً. فقد روى رجزاً في مادة «بَقَّم» ونسبه إلى رؤبة، بينما عزاه صاحبا الجمهرة واللسان إلى أبيه العجاج؛ كشف ذلك المحقق.

7 - لم يستوعب كلَّ المعربات المعروفة في عصره على كثرة بذلها بين الخاصة والعامة. بل إنه لم يذكر كلَّ ما جاء في القرآن والحديث من معرب ودخيل، ونادراً جداً ما يذكر الآية أو الحديث مثل: استبرق، أبيل.

وبعدُ، فمهما قلنا في هذا الكتاب وما أخذناه على مؤلفه يظلُّ المبدعَ الأول، وصاحب السبق، وفاتح الطريق للتصنيف بالمعربات، من غير أن يُحسن أحد بعده من قريب أو من بعيد. وحسبه فخراً أن يصفه أبو البركات الأنباري في نزهة الألبّاء بأنه: «لم يُعمل في جنسه أكبر منه». والأنباري تلميذ الجواليقي (وابن الشجري) وصاحب المؤلفات الشهيرة، والمتوفى سنة 577هـ.

تحقيق المعرب:

لا نجرؤ على نقد شيخ المحققين في مصر، ولا يعادلُه في دقته بالتحقيق والشرح أحد حتى اليوم. وكان لزاماً أن يكون تعليقي هذا من ضمن حديثي عن أوهام المحققين في آخر الفصل غير أنني رأيت إتباع رأيي عقب الحديث عن «المعرب» للجواليقي لأنه محقق الكتاب وشارحه، وأجزمُ أنه كدَّ كثيراً وأحسن في تحقيق النص، وتوثيق الشواهد. ولولا تحقيقه هذا لضؤل مقام المعرب.

لكن الأمانة العلمية تفرض علي بعد التّنويه بعمله، أن أشير إلى عيب واحد وقع فيه أحمد محمد شاكر، وهو العيب الوحيد في حياته، وسبقني إلى ذكره شيخُ علماء الفارسية في مصر وهو عبد الوهاب عزام. هذا العيب هو عدم معرفته لأيٍ من اللغات الشرقية. ولو أن هذا العلاّمة درس الفارسية قليلاً واطلع على لغة سامية لتغيَّرَ شرحه ولدنا من الصواب.

وأذكر في هذا الصدد، كيف أن الشاعر النجفي تعلم الفارسية حتى يفهم رباعيات الخيام ويترجمها، والشاعر علي الناصر تعلمها حتى يتمكنَ من الاطلاع على شعر حافظ الشيرازي. وإنني حين عمدتُ إلى تحقيق بعض كتب الخيل اطلعت على كتب عديدة في علم البيطرة.

ويُغفر لشيخ المحققين حبُّه العميق للغة العربية، فنراه كثيراً ما يرفض عجمة بعض المفردات، لكنَّ هذا الحب لا يكفي لتغطية الحقيقة.

ونراه كذلك يتدخل في صلب أمورٍ بالفارسية، ويدَّعي صوابها أو خطأها، وهو على ما علمنا وسنعلم غير مطلع عليها، من ذلك قوله في «إستار»: «أصله

جِهار» بكسر الجيم. والصواب أنها بجيم فارسية (مثلثة) مفتوحة. ويعلق على «بِرسام» بأن صوابها الفتح، فيخطِّئ الجواليقي والعلامة الكبير إدِّي شير، مع أن اللفظة أعجمية. والصواب بكسر الباء كما عندهما، وكما ذكرنا.

ويعلق على «جُلسان» في الحاشية (1/ 80) فيقول: «يقال إنه الورد. ويقال: قبة ويجعلون عليها الورد»، من غير أن يذكر مصدره ولا نائب الفاعل. والكلمة فارسية معربة عن «گُلْشَن» أي بستان الأزهار. وعربت بمعنى الورد، وما يُنثر من أزهار على الحاضرين عرساً. كما عُربت بالقبة التي تُعَرَّش الأوراد والأزهار عليها.

وقد قدَّم عبد الوهاب عزام للكتاب، وهذا خير ما في الكتاب. ويقول في مقدمته: «ولو رجع الأستاذ الناشر (ويعني أحمد شاكر) في بعض المسائل إلى من يعرف اللغة الفارسية واللغات السامية، لاستطاع أن يكون حَكماً في الترجيح بين الآراء، ولقطع الرأي في مسائل كثيرة، ولكان التفسير والتعليق في بعض الكلمات أقرب إلى الإصابة والإحكام». وأتى عزام بنماذجَ على وَهْم شاكر في التفسير، من ذلك:

1 - گاوميش: حيث قال: إن «ميش: مختلط» (نقلاً عن عبد السلام هارون). والصواب أن «ميش» نعجة.

2 - علق على كلمة «ران» على ما نقله عن ابن دريد بقوله: «لا أدري ما يريد ابن دريد! فإن الران والرين: الصدأ». إلى أن قال: «وأظن ابن دريد خلط في هذه المادة». ويقول عزام: «والصواب أن ران في كلام ابن دريد كلمة فارسية معناها الفخذ»، وهو الصواب.

هذا جانب من ملاحظاتنا وملاحظات عزام على شرح أحمد شاكر على كتابه. علماً لو أنني حاولت تحقيق الكتاب ثانية لما أتيتُ على جانب من عمل المحقق العظيم، إلا ببعض التصويبات في أصول الكلمات المعربة والدخيلة مما أنا على علم به.

الخفاجي وكتابه:

هو أحمدُ بن محمدُ الخفاجيُّ شهاب الدين (979 – 1069هـ) أحد علماء مصر في العهد العثماني. زار بلاداً عديدة وأخذ من علمائها، وعمل قاضياً. واشتغل بالتأليف، وله «ريحانة الألبا» وهو ترجمة لأدباء عصره، و«شرح درة القواص»، و«عناية القاضي» في التعليق على تفسير البيضاوي..

وكتابه «شفاء الغليل» واحد من مؤلفاته، وثاني أشهر كتب التعريب بعد كتاب الجواليقي[1] فسدَّ ثغرةً مكمِّلة في مساعي جمع المعرب والدخيل بعد حوالي خمسة قرون، فكان تكملة لما قام الجواليقي به، وإضافةً على ما جاء بعده. ولهذا كان عددُ مفرداته أكثر من عدد مفردات «المعرب»، لكن المؤلفينِ متشابهان في عدم معرفةِ لغةٍ واحدة من اللغات التي اقترض العرب منها وعربوها. حتى إننا نجده يقول كثيراً: «لست أدري أعربي هو أم معرب». ومثالنا على ذلك كلمة «زيج» الواضحة العجمة.

اعتنى الخفاجي بكتابه كثيراً، ورجع بسببه إلى عدد من الكتب ذكر منها: الصحاح، الصناعتين، ربيع الأبرار، شرح الحماسة، الموطأ، معجم البلدان، مقامات الهمذاني والحريري، كتب التفسير، شروح الحديث، كتب الطب، شرح البحتري وشرح أبي نواس للصولي، كتاب سيبويه، الفائق، شرح الفصيح، البديع...

ومن العلماء الذين ورد اسمُهم في كتابه: الأصمعي، الكسائي، الجوهري، الخليل، الفيروز آبادي، الزمخشري، ابن البيطار، الواحدي، اللخمي، ابن التلميذ، ابن خَلكان، الأزهري، ابن الجوزي، ابن قتيبة، التبريزي، وعشرات غيرهم وعلى رأسهم الجواليقي الذي نهل منه حتى ارتوى.

واستشهد بشواهدَ شعرية كثيرة لشعراء أعلام، مثل: المتنبي، امرئ القيس،

(1) طبع الكتاب في مطبعة السعادة بمصر سنة 1325هـ.

القيسراني، الأرجاني، الأعشى، جرير، الفرزدق، الأخطل، البحتري، أبي تمام، طرفة، أبي نواس، الشريف الرضي، مهيار، ابن المعتز...

وبذلك غدا كتابه مهماً جداً، الصحيحُ فيه كثير، ولا سيما ما نقله عن هؤلاء الأعلام وهذه الكتب، ولا سيما المعرب للجواليقي. لكن المؤلف اعترته الخيلاء، وأصابته مُزْعة من الكبرياء، فنراه يتعالى على مَن أفاد منهم ونقل عنهم. يقول في مقدمته: «... دعاني إليه أن المعرب ألف فيه قوم، منهم مَن لم يَحم حول ناديه. ومنهم من دقق في التخريجات الغريبة، وأتى في أثناء ذلك بوجوه عجيبة».

وداهم الجواليقيَّ الذي نسل جزءاً من كتابه، وانتهج منهجه، فقال عنه في مقدمته: «وكتاب أبي منصور - روَّح الله روحه، وأجزل منازل السعادة فتوحه - أجلُّ ما صُنف في هذا الباب». ويتابع كلامه فيقول: «إلا أنه لم يميز فيه القشرَ من اللُّباب». ومع ذلك فإنه اعترف بأنه اقتبس منه، فيقول: «وأضفتُ إليه فوائد، ونظمت في لَبَّاته فرائد...»، علماً أنه كان عالةً عليه، سائراً مسيره، راشفاً نَميره.

وكان الخفاجي يخطِّئ صاحب القاموس كثيراً، ويهاجمه بعنف ويتسقط أخباره. ومن قوله فيه حين يذكر الألماس: «.. تبعَ فيه الرئيس في القانون، وهو كثيراً ما يعتمد على كتب الطب، فيقعُ في الغلط». وقوله في أبزن: «ومنه عينٌ أبزن، لعينٍ عند الصَّفا، والناس يغلطون ويقولون: عين بازان، كذا في القاموس، ولستُ على ثقة منه».

وهو إذا عاب على القاموس في معاني المعربات، والفيروز آبادي فارسي، فإنه عاب عليه تقصيره في اللغة؛ قال: «آذيته أذًى، ولا تقلْ إيذاء، كذا في القاموس، فظنَّها من الخطأ والخطأ منه.. وهو كثيراً ما يترك المصادر القياسية..». ويمكن للباحث أن يتتبع نقدَه للقاموس، فيخرجَ من ذلك ببحث لغوي مهم.

والخفاجي ينتقد غيرهما كثيراً سواءً ذكر اسم من ينتقد أو لم يذكر، كقوله: «وأما قولهم تَقَنطر بمعنى وقع فغلط فاحش، وصوابه تقطَّرَ. وعلى الغلط جرى ابن حِجَّة... كما هو دأبه». وكثرةُ الطعن تُنقص من مصداقية الكاتب. ولو أنني أحصيت مآخذ الخفاجي في معاني المعربات وأصولها لكانت فاحشة. غير أنني أشكره على ما بذله من مجهودٍ خَدمنا خدمات جليلة إلى جانب كتاب الجواليقي.

وفيما يلي منهج الخفاجي في تأليفه للكتاب:

1 - رتَّبَ كتابه على حروف المعجم على أساس الحرف الأول دون اعتبار للحرف الثاني، تماماً كترتيب الجواليقي لمعربه. فنراه يورد: إبراهيم، فإسماعيل...، فإسرائيل، فالإنجيل، فالأبزيم، فالأشنان.. كما أنه لم يراعِ المدَّ فجعله همزة، بحيث جاءت: آتش، وآذريون بعد إبراهيم وإسماعيل.

2 - يحلل الكلمة لفظاً، فيقول في إبراهيم مثلاً: «وفيه لغات: إبراهام، وإبرهم، وإبراهُم». كما يحللها معنى، فيذكر المعاني التي استخدمها العرب. لكنه قلما يذكر معناها الأعجمي الأصلي. وهو بهذا أكثر شرحاً من الجواليقي.

3 - قد يحلل الكلمة ويذكر أنها عربية مولدة، وليست أعجمية.

4 - يكثر من الشواهد الشعرية، غير أن الثقة بهذه الشواهد معدومة لاضطراب أوزانها، واختلال حروفها، سواء من الناسخ أو الناشر. ولعل في إعادة طبعه محققاً فائدةً علمية ثمينة.

5 - يُقحم المولد من الألفاظ مع المعرب، مع أن المولد غالباً ما هو عربي لم يقبل به علماء اللغة.

6 - يقع الباحث على كثير من المفردات من غير شرح؛ فيقول في الإهليلج مثلاً: «معروف». وفي أطربون: «معرب أتربوس». وفي كلمة قند: «استعمله العرب، وقالوا: سويق مقنود ومقند»، من غير شرح أو تعليق.

السُّبكي وكتابه:

هو الإمام عبدُ الوهّاب تاجُ الدين السُّبكيُّ (ت 771هـ)، فقيه مؤرخ ثَبت. ولد في القاهرة، ثم قدم إلى دمشق فصار فيها قاضي القضاة ومات في دمشق بالطاعون. ومن كتبه: «طبقات الشافعية الكبرى»، و«جمع الجوامع»، و«مُعيد النعم ومُبيد النقم».

وكتابه الأخير هو المعنيّ في المعربات، وهو كتاب صغير الحجم، طبع بـ124 صفحة. ولم يكن هدفه التعريب كهدف سابقيه، ولا شرح اللفظ المعرب من حيث إنه معرب. وإنما جاء عمله يخدم هذا الهدف من غير قصد، وذلك عن طريق وصف المناصب السياسية والإدارية والعسكرية المعروفة في زمانه، إبان حكم المماليك. وكان معظم هذه الألفاظ فارسياً، وتركياً، ومغولياً. وكان بعضها مركباً من الفارسية والعربية، وبعضها من التركية والعربية. وكان يطيل في شرح صاحب هذا المنصب من حيث مرتبتُه، ومكانته، ومدى قربه من السلطان.

ويمكننا تقسيم المفردات إلى أنواع، أهمها:

1 - أسماءُ مراتب نواب السلطنة، مثل:

دَوادار: وهي وظيفة كاتب الملك وحامل الدواة له. وهو مصطلح فارسي عُرف منذ العصر العباسي، مركب من «ديو: الحبر» باللغة الفرعونية، وتحولت إلى دواة وهي قنينة الحبر. و«دار: لاحقة فارسية بمعنى المالك والصاحب». ثم تحول معناها المركب إلى المنشئ، القَيِّم. وتوسعوا بالمعنى حتى أدت معنى منصب الإشراف على البريد وعرض القصص على السلطان.

خانَدار: المسؤول عن المنزل والقصر، من الفارسية: «خانه: منزل» و«دار».

2 - أسماء أصحاب الدواوين، مثل:

مهمندار: مدير التشريفات بالمعنى الحديث، والكلمة فارسية مركبة من «مِهْمان: ضيف»، و«دار».

سِلحدار: المسؤول عن إعداد الأسلحة والحفاظ عليها في ديوان الجند.

طبردار: حامل الطبر وهو الفأس فوق رأس الأمير.

3 - النقباء في أبواب الحجاب والولاة.

4 - وكلاء القاضي.

والكتاب «معيد النعم» مفيد جداً لِما تضمَّنَه من معلومات تاريخية، وإدارية، وأسماء المناصب ومهمات أصحابها على صغر حجمه. ولم تكن مفرداته المعربة والدخيلة كثيرة، ولكنها متميزة، معظمها مما لم يرد في كتب المعربات.

وكان حق الكتاب أن يأتيَ قبل «شفاء الغليل» من الناحية التاريخية، غير أنني ذكرتُ الكتابين: المعرب فالشفاء تباعاً لأن الثاني يكمل الأول.

السيوطي ومؤلفاته:

يعدُّ عبدُ الرحمٰن بن أبي بكر جلالُ الدين السيوطي (ت 911هـ) من أعظم المؤلفين العرب الموسوعيين. ولد في مصر، ورحل في سبيل العلم حتى وصل إلى الهند. ثم جلس للتأليف وهو في سن الأربعين، وألف قرابة خمس مئة كتاب في معظم علوم العربية؛ بعضها في مجلدات، وبعضها في ورقات. وبعضها إبداع، وكثير منه جمع وشرح وتفصيل. ومن أهم مؤلفاته: تاريخ الخلفاء، وبغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة، وحُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

أما مؤلفاته في التعريب، فبعضها أورد فيها فصولاً مثل: «الإتقان في علوم القرآن»، و«المزهر» في فلسفة اللغة. وبعضها كتاب قائم بذاته مثل: «المهذب فيما وقع في القرآن من المعَرَّب». وقد خصَّ في الكتابين الأولين بعض المفردات الفارسية، ولا سيما ما جاء منها في القرآن.

وخيرُ كتبه التي ذكر فيها معربات القرآن هو «المهذب»، وحصر فيه مجهوده في جمع ما ذكره الأقدمون وما توصَّل إليه بنفسه، فكان عددُ المعربات في القرآن 124 لفظة، عرضها وشرحها في كتابه هذا، وذكر من ألفاظ الحبشة 28 لفظة،

ومن الفارسية 29، ومن الرومية 9، ومن الهندية 3، ومن السريانية 20، ومن العبرية 20، ومن النبطية 24، ومن القبطية 7، ومن التركية 1، ومن الزنجية 3، ومن البربرية 7. مع مراعاة أن السيوطي كان يكرر اللفظة الواحدة مرتين أو ثلاثاً أحياناً.

ولمّا لم يكن عالماً بلغات أخرى، ولمّا كان ينقل عن غيره غالباً، فإننا نجده ينسب اللفظة الواحدة إلى أكثر من لغة، مثل: «أوّاه» فيذكر أنها حبشية أو عبرية، و«ابلعي» حبشية أو هندية، و«مُتكأ» حبشية، أو قبطية أو هندية، و«طه» حبشية أو سريانية أو نبطية، و«الفردوس» رومية أو سريانية أو نبطية.. وهكذا كان يفعل في معظم معربات القرآن.

وقد التقط مفرداته من كتب التفاسير، والقراءات، والمعربات، وكتب علوم القرآن، وكتب اللغة، وغيرها. ولم تكن الشروح من عنده، بل من أعلام مشهورين مثل: ابن جريج، ابن جني، ابن الجوزي، ابن حَجر، ابن خالويه، ابن دريد، ابن عباس، ابن قتيبة، ابن هشام، ابن فارس، الثعالبي، ثعلب، الجواليقي، (أكثرهم ذكراً)، وغيرهم عشرات.

وقال في ختام كتابه: «فهذا ما وقعتُ عليه من الألفاظ المعربة في القرآن بعد الفحص الشديد سنين.. ولم يجتمع قبلُ في كتاب قبلَ هذا». ورتبه بحسب التسلسل الألف بائي. ومجملُ الكتاب مختصر كان في الأصل فصلاً في كتابه «الإتقان». ثم عاد فألف الكتاب ثانية وبشكل آخر تحت عنوان «المتوكِّلي فيما ورد في القرآن باللغات الحبشية والفارسية والرومية والهندية والسريانية والعبرانية والنبطية والقبطية والتركية والزنجية والبربرية».

وأسماه «المتوكلي» نسبةً إلى الخليفة العباسي المصري المتوكل على الله، بناءً على أمر من الخليفة، كما ذكر في مقدمته: «... فقد برز الأمر الشريف الإماميُّ الأعظمي الهاشمي العباسي المتوكلي. الإمامُ المتوكلُ على الله.. أن أكتب له مؤلفاً في الألفاظ التي وقعت في القرآن الكريم، وذَكر الصحابة والتابعون أنها بلغة الحبشة أو الفرس، أو غيرهم مما سِوى العرب».

وقال في سبب التسمية كذلك: «. . وسميتُه المتوكليَّ، اقتداءً بالإمام أبي بكر الشاشيِّ - من أصحابنا - حيث ألف كتاباً في الفقه بأمر الخليفة المستظهر بالله، وسماه المستظهري».

والكتابان في الأصل ملخصان من كتابه «المبسوط المسالك» والمسمَّى «الدرُّ المنثور في التفسير بالمأثور» وهو في مجلدات.

وقد رتب السيوطي المفردات المعربة في كتابه «المتوكلي» بحسب الأمم، وهي إحدى عشرةَ أمة، بدأها بلغة الحبشة، ثم بلغة الفرس، ثم بالرومية، ثم بالهندية، ثم بالسريانية، ثم بالعبرانية، ثم بالنبطية، ثم بالقبطية، ثم بالتركية، ثم بالزنجية، ثم بالبربرية. من غير اختلاف في المادة.

وسيجد القارئ المفردات المعربة الواردة في القرآن في الفصل الأخير من الكتاب مرتبة ومفصلة بشكل علمي، ومشروحة بحسب المعنى في الآية.

ونعدُّ عمل السيوطي هذا جرأةً علمية كبيرة في العصر العثماني، حين كان العلماء يرفضون وجود لفظ غير عربي صريح في القرآن. ففتح بذلك باباً واسعاً في هذا الميدان.

تنتهي وقفتنا إلى هذا الحدِّ عند العلماء القدماء الذين جاهدوا مخلصين في رصد المعرب والدخيل. وتبين لنا أن أول من رفع راية التعريب في التصنيف في كتاب جامع هو الجواليقي، فكان رائد مَن بعده، وأن الخفاجي آخر من رصد التعريب حتى زمانه في القرن الحادي عشر الهجري. وذكرنا مساعي العلماء قبل الجواليقي وفضلهم في ذلك، ودور السيوطي في المعرب الوارد في القرآن الكريم.

وإتماماً للجهود العلمية سنستعرض همة علماء التعريب في العصر الحديث، ونتوقف عند من أدلوا بدلوٍ مَعين، واجتهدوا بعملٍ مُعين.

علماء التعريب المحدثون

لم تنقطع مساعي علماء اللغة في إحصاء المعربات ودراستها، سواء عن طريق كتب، أو أبحاث، أو مقالات، أو معجمات. وسنوسع الحديث في هؤلاء الأعلام وفي نتاجهم، على قدر معرفتنا لهم، علماً أن معظمهم نقل من عمل الأقدمين، وأقلهم من كان يعرف إحدى اللغات القديمة:

١ - إدي شير:

عالم كلداني كبير من أهل العراق. ولد في «سَعرت» عام 1867، وصار أسقف الكلدانيين عام 1902 وعمره خمس وثلاثون سنة، وقتله العثمانيون عام 1915. وعلى رغم قصر عمره، وانشغاله بأسقفية سعرت في وقت مبكر من حياته، فقد ترك للمكتبة العربية بضعة كتب منها «تاريخ كلد وآثور» و«مدرسة نصيبين الكبرى». وأما شهرته فجاءت من كتابه «الألفاظ الفارسية المعربة»، والذي طبعه في بيروت عام 1908 في المطبعة الكاثوليكية، وعدد صفحاته مئة وستون صفحة. وهو أفضل من اشتغل بالتعريب من المحدثين، ولهذا سنوليه اهتماماً خاصاً.

ذكر إدي شير في كتابه ما توصل إليه من المعربات الفارسية، وما ترجَّح لديه أن يكون بعضها عبرياً، أو سريانياً، أو يونانياً، أو كردياً، أو رومياً، أو حبشياً. فأساس العمل اللفظُ الفارسي المعرب، وتفرع عنه مفردات أخرى.

وقد أفاد إدي شير من لغته السريانية الكلدانية، وعمله باليونانية، وجواره للبلاد الفارسية، ومعرفته للعبرية عن طريق دراسة التوراة. وقد تابع المعرباتِ وتتبعها قرابة عشر سنوات من عمره القصير. فتجمع لديه 1537 لفظة، وهو عمل جليل يحمد له. وقد قال في مقدمته: «ولولا كثرة الأشغال لجمعت كلماتٍ عديدةً غيرها».

وقد رتب كتابه على التسلسل الألفبائي بشكل دقيق جداً. غير أنه عدَّ المدَّ همزة، فجاءت مثلاً «الآجور» بعد «الأتَيْشَة». وكان يدرس اللفظة بدقة وإيجاز، ويضبط شكلها، ويذكر أصلها الأعجمي، وما يقرب منها بالرومية واليونانية. وقد يقارنها بلغات أجنبية معاصرة؛ فهو في «آخور» يقول: «فارسيته آخور، ويقربه الرومي eguile، ومنه الفرنسي écurie، والإيتالي. . والأرمني. . ». ثم يقول: «وهو أيضاً آخور بالسريانية الدارجة، والتركية، والكردية. أما الإسطبل فهو تعريب رومي stabulum».

وكان يرجح أصلاً على آخر بكل أمانة واعتدال، ولم يَنْسق إلى هواه - على عادة بعض العلماء السريان - فيجعل معظم المعربات سريانياً. بل نراه يرجح فارسية اللفظ أو يونانيته على ما اشتهر في الكتب بأنه سرياني.

وعلى هذا سار في كتابه مع كثير من الإيجاز، ولو أنه فصل لكان خيراً أكثر للعلم. وقد كان قاموس «برهان قاطع» لحسين التبريزي مرجعه الوحيد باللغة الفارسية، وهو معجم صغير، لكنه الوحيد تقريباً حتى زمانه. ومن المعجمات العربية التي اعتمدها «محيط المحيط» و«أقرب الموارد». ونادراً ما كان يرجع إلى معجم قديم كالقاموس المحيط.

وأرى أن إدي شير خيرَ من عمل في المعربات الفارسية في العصر الحديث، وأقربهم دقةً إلى الصواب، وأفاد منه الباحثون. غير أنه لم يتعرض إلى المعرب والدخيل في العصر الحديث، إلا ما عرب قديماً، وما زال متداولاً حتى اليوم.

٢ - أحمد تيمور باشا:

هو أحمد بن إسماعيل (1871 - 1930) أديب مؤرخ مصري من مواليد القاهرة، تركي الأصل، ولعله من نسل بعض مماليك الترك المغول. صاحب مكتبة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات، وقد أهداها إلى دار الكتب المصرية. وهو والد الكاتبين محمد ومحمود تيمور، وأخو الشاعرة عائشة.

اشتغل تيمور باشا بالتأليف، فأصدر «تصحيح لسان العرب»، و«تصحيح القاموس المحيط»، وغيرهما. وقد اشتهر بعمله في ميدان المعربات والأمثال

الشعبية. وله «المعجم الكبير» في المعربات وهو غني الفائدة مما له علاقة باللغة التركية لإجادته لها ونظمه بها، في حين أن معرفته باللغة الفارسية واهية جداً؛ فقد جاءت معرفته لها عن طريق ما في التركية من مفردات فارسية، ولهذا ضلت مفردات أصلَها فارسي عن معناها الأصلي في معجمه لأنه جعلها تركية.

٣ - حليم دموس:

أديب لغوي، وهو صاحب «قاموس العوام»، يدل عنوان كتابه على مضمونه؛ فقد جمع فيه مجموعة من المفردات العامية المتداولة في بلاد الشام في ثلاثينيّات القرن الماضي، ووضع لها ما يرادفها من المفردات الفصيحة. وهو بهذا أول من جمع المعربات المعاصرة التي تتناقلها العامة. ومن جملة هذه العاميات عدد من المفردات المعربة، مثل: طابة (كرة)، طابو (تمليك)، طابور (صف). ورتب مفرداته بشكل قوائم عمودية بحيث يضع الكلمة العامية، وفي مقابلها ما يعادلها في الفصيح. وإذا ذكر كلمة أعجمية أو أجنبية ودوَّنَ مرادفها، ذكر نسبتها بين قوسين. وهذا شيء عظيم يُشكر عليه. غير أن عمله موجز جداً ومادته غير شافية، إضافة إلى أن الكتاب صغير الحجم.

٤ - إغناطيوس يعقوب الثالث:

أحد كبار رجال الدين المسيحي ومن علماء السريان في حلب من بلاد الشام. صنع كتابه العظيم «البراهين الحسية على تقارب السريانية والعربية». ويدل عنوانه على أن المؤلف سيضم تداخل اللغتين في بعضهما بعضاً، غير أنه اقتصر على سرد المفردات السريانية التي دخلت العربية، مع فيض من الهوى الذي جره إلى جعل معظم المفردات العربية سريانيًا، ويظل كتابه من أهم ما أُلِّف في المعربات من السريانية.

ويَحسن بنا أن نتنبه إلى أن العربية لم تُهيمن على السريانية، ولا السريانية طغت على العربية، مع أنهما لغتان شقيقتان من أصل سامي واحد، وتجاورتا قروناً عديدة في بلاد الشام والعراق وباديتهما.

٥ - رفائيل نخلة:

هو أحد أقباط مصر اليسوعيين الذين لمعوا في منتصف القرن الماضي. غير أنه قدم إلى حلب حيث طبع كتابه «غرائب اللغة العربية» عام 1954، ثم انتقل نشاطه الديني إلى لبنان، فأعاد طبعه في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية عام 1960، بحجم أكبر مما كان عليه في الطبعة الأولى، حيث بلغ ثلاث مئة صفحة. وقد ضمت الطبعة الأولى 521 لفظة، بينما بلغ عدد مفردات الطبعة الثانية قرابة 2500 لفظة.

لم يكن كتابه «غرائب اللغة العربية» كله في المعربات؛ فقد ألفه في ثلاثة أبواب، جاء الباب الأول مقصوراً على خصائص اللغة العربية. والباب الثاني حول تأثير العربية في نحو مئةٍ من اللغات في العالم، وهو بحث مهم جداً، يدل على أن المؤلف واسع الاطلاع، عارف لعدد من اللغات، ذو إحساس وطني مُرهف نحو لغته العربية، غير أن هذين البابين لا علاقة لهما بالتعريب والدخيل.

بينما جاء الباب الثالث في الكلمات الدخيلة على العربية، وذلك بمئة وعشرين صفحة. تحدَّثَ فيه عن اقتراض العربية من اللغات الأخرى. ورأى أن الآرامية والفارسية أكثر اللغات التي اقترض العرب منها. وهناك اليونانية، واللاتينية، والتركية، والإيتالية، والفرنسية، ومعربات أخرى أقلُّ من الإسبانية، والإنكليزية، والهولندية، والألمانية، والروسية، والأرمنية، والألبانية، والآشورية، والحبشية.

وهو بهذا جعل المعربات القديمة والحديثة في بوتقة واحدة، مما لم يفعله إدي شير، فكان أولَ المحدثين في هذا العمل. وقد ساعدته ثقافته اللغوية الواسعة، ودأبه المتواصل، وتجوله المرهق بين اللغات، على إحصاء هذا العدد الجمّ المتوزع بين القديم والحديث.

وقد اتبع منهجاً واحداً في باب التعريب، وذلك بتعريف موجز للغة المؤثِّرة، لا يعدو الصفحة الواحدة. ثم يأتي بنماذجَ عديدة مما اقترضته العربية منها وعربته فمن جملة الكلمات الآرامية التي يرى أنها عربت، نموذجاً لطريقته:

آنُك : الرصاص

أبيل : الراهب

إرزَبّة : مطرقة النجار الخشبية

ازْدَهِرْ : إحذرْ

أُقنوم : شخص

أُنبوب : ما بين العقدتين من القصب

باكورة : أول الثمر

جِلواز : شرطي

خوخ : ثمر معروف

خوص : ورق النخل

مِجَنّ : ترس

مِدْماك : صف اللبن من البناء

وقد خرج المؤلف بنتيجة أنه دخل العربية:

988 كلمة آرامية	42 عبرانية
854 كلمة فارسية	17 إيتالية
472 يونانية	12 فرنسية
32 تركية	31 من لغات أخرى
67 لاتينية	**2515 المجموع**

ومع أننا لا نخفي عدمَ قناعتنا بصحة الأرقام التي ذكرها مطلقاً، إلا أننا نقدر همة المؤلف وسعيه، لأن هذه الأرقام قليلة جداً بالنسبة إلى ما توصَّلنا إليه في «المعجم الذهبي في الدخيل على العربي».

وقد وقع رفائيل ببعض العثرات لعدم معرفته للفارسية، ونقله للمعاني من بعض الكتب الأجنبية. من ذلك:

1 - جعلُه بعضَ الكلمات التركية والمغولية فارسية. من ذلك: قوتاش: نوع من

الجاموس. أرمغان: هدية المسافر. يَلمق: ثوب مبطن كان التتر يلبسونه.

2 - جعله بعضَ الكلمات الفارسية يونانية، مثل: سُنْدُس: الحرير الرقيق. سَميذ: نوع من الطحين تصنع منه الحلويات. قهرمان.

3 - جعله بعض الكلمات الهندية يونانية، مثل: كافور.

4 - يقول مثلاً: كَفْش مؤنثة. في حين أنه ليس في الفارسية مذكر ومؤنث.

5 - يحرك خطأً، مثل: كاغِذ، وصوابها بالفتح.

6 - يحرك وسط الكلمة المركبة، مثل: كارِگاه: محلّ العمل، وصوابها بسكون الراء. ومَرْزُبان: حامي الحدود، وصوابها بسكون الزاي. ونارَجيل، وصوابها بسكون الراء. لأن المركب عند الفرس يعدُّ كلمة واحدة. وهذا من خصائص لغتهم.

7 - يترجم بعض الكلمات خطأً، مثل: بال ومعناها الذيل، فيترجمها بمعنى القامة.

8 - يجعل بعض الكلمات الأعجمية عربية، مثل: سوسن، فيقول: عربية.

9 - يجعل بعض الكلمات العربية يونانية، مثل: عقيق، فيرى أصلها akhatis، والوَيْن: العنب الأسود بلغة حضرموت كما في القاموس، وهي سامية قديمة، وردت في التوراة بمعنى الخمر yayin، فيراها يونانية من inos.

٦ - مسعود بوبو:

نال مسعود درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بمصر، وعاد إلى دمشق مدرساً لعلم اللغة. وظل يدرس حتى توفي عام 2001 ودفن بقريته قرب اللاذقية. وكتابه الذي نال به درجة الدكتوراه هو «أثر الدخيل على العربية الفصحى»، وطبعته له وزارة الثقافة بدمشق 1982، عدد صفحاته دون الأربع مئة.

والكتاب علمي رصين، مؤلف من أربعة فصول، هي:

الفصل الأول : مفهوم الدخيل.

الفصل الثاني : الدخيل والدراسات الصوتية.

الفصل الثالث : الدخيل وبناء الكلمة.

الفصل الرابع : الدخيل ودلالة اللغة.

ويتضح من هذه الفصول أن المؤلف عالج المعرب والدخيل من جوانبه كافة، ودلَّ على مقدرة وإحاطة، ولم يترك مسألة في هذا الموضوع إلا عالجها. وأكثرَ من الأمثلة والاستشهاد عليها. غير أنه قصر بحثه في دراسة الدخيل على عصر الاحتجاج فجاء محدوداً زمانياً ومكانياً، أي على المساحة التي اتسعت الرقعة العربية في هذا العصر الذي لم يتعدَّ منتصف القرن الرابع الهجري. وتظل أولَ دراسة جادَّة في المعرب والدخيل.

كما أن بوبو لم يعرف من الفارسية إلا ما كنا ندرِّسه من سُويعات في السنتين الأوليين من قسم اللغة العربية. غير أنه أحسن انتقاء المراجع والمصادر، وصدق في عمله، فجاء بحثه جديداً متقناً.

٧ - خير الدين الأسدي:

أديب حلبي كبير قضى عمره بالتدريس والتأليف، ومات فقيراً في دار العجزة. خير كتبه «موسوعة حلب» والذي طبعتها له جامعة حلب بعد وفاته[1]. وقد أفنى عمره بجمع مادة الموسوعة من أفواه العامة في أسواقهم ومجالسهم ومقاهيهم. وحصد - على مسيرة حياته كلها - ما تفوَّه به الحلبيون من ألفاظ عامية فيها كثير من المعربات. وكان المرحوم بيد واحدة يكتب بها، ويقوم بأعباء حياته وحيداً في منزله.

كان الأسدي يسجل - بحسب التسلسل الهجائي - المفردات العامية، ويُرجعها إلى أصولها. وقد أفادنا كثيراً بإرجاعه الكلمات المعربة إلى أصولها التركية، والسريانية، والفارسية، والعبرية، وأحياناً يقارنها بالفرنسية.

(1) عاش بين 1900 - 1971، وطبع كتابه عام 1981.

وقد طبع الكتاب بسبع مجلدات طباعة حسنة. وكان يجدر بهذا الكتاب أن يُدفع إلى عالم لغويات وعالم معربات للتعليق عليه وإضافة ما يلزم من شروح، لا مجرد مدقق مطبعي. وقد استطاع المؤلف أن يجمع في كتابه مجموعة كبيرة من المعربات في اللهجة الحلبية.

دور المعجمات الحديثة:

كان للمعجمات الحديثة التي ظهرت منذ القرن التاسع عشر خطوة محمودة في مجال المعربات، فقد كانت تشرح الألفاظ القديمة والحديثة، وفي معرض ذلك كانت تشرح ما يردُ معها مفردات غريبة. ومن هذه المعجمات: البستان، المحيط، أقرب الموارد.

ولعل المنجد في اللغة ضم عدداً وافراً من المعربات القديمة والحديثة، مستنداً إلى خبرة القائمين على إنشائه باليونانية والسريانية والفرنسية، بشكل يفوق غيره من المعجمات الحديثة. ويليه في الأهمية «الصحاح» الذي صنعه المرحوم الحلبي نديم مرعشلي وابنه أسامة. غير أن الصحاح عُني بالمفردات والمصطلحات العلمية الغربية، ولم يفقه معجم عربي آخر في ميدانه.

ولا يجوز لنا أن ننسى «قاموس سامي» التركي الذي يعدُّ من أوائل المصنفات في عصر النهضة. وهو قاموس تركي عثماني أحادي اللغة، يفيد كثيراً في شرح المفردات المعربة عن اللغة العثمانية، وحتى ما كان منها من أصل فارسي، لأن ثلث اللغة التركية فارسي.

وأسهم بعض الباحثين بالكتابة إلى بعض مجلات تُعنى بالمعربات كمجلة الدراسات الأدبية في بيروت، واللسان العربي في المغرب، والثقافة الإسلامية (ولا سيما أعدادها الأولى) وتصدر عن المستشارية الإيرانية بدمشق، ومعظم المجلات العربية التي تصدر عن المجامع العلمية واللغوية، وغيرها. وتحتاج إلى دراسة ورصد وجمع.

ولا بد لي، في الختام، من أن أشير إلى مساعيَّ في مجال المعرب والدخيل. فقد أصدرت عام 1968 «المعجم الذهبي» في دار العلم، ثم تعددت طبعاته في

سورية ولبنان وإيران، فكان أول معجم فارسي عربي، ثم أتبعته بالمعجم الذهبي عربي فارسي عام 1998 بمكتبة لبنان، ومجموعة مزدوجة ومنفردة من المعجمات الثنائية اللغة بالفارسية والعبرية، و«عبقرية العرب في لغتهم الجميلة»، و«الاقتراض والانقراض»، وأخيراً «المعجم الذهبي في الدخيل على العربي»، ولعله أوسع معجم في بابه؛ فقد ضم قرابة تسعة آلاف لفظة معربة ودخيلة من معظم اللغات في العالم. إضافة إلى مجموعة من المقالات والأبحاث المنشورة في المجلات العربية.

ومع أن المعرب أهم وأكثر شهرة قديماً، ودخل المعجمات العربية الأصيلة، فإن مكانة الدخيل اليوم أوسع، وتسرُّبَه في العربية الحديثة أكثر بسبب الحضارة الحديثة والمخترعات الغربية الوافدة باستمرار، والمصطلحات العلمية الأجنبية التي تحتاج العربية إليها.

ولقد خاف علماؤنا الأقدمون من تسرب المعرب والدخيل إلى العربية من أن يعتريَها الوَهَن، لكن العربية لم تتأثر سلباً قِيدَ أنملة، وكذلك تخوَّف علماؤنا من الدخيل الغربي في العصر الحديث. ولا نرى مطلقاً ضرورة للتخوف على قوة اللغة العربية من هذه الألفاظ الدخيلة. ويأتي تخوُّفهم من انحراف ألسن شبابنا وابتعادهم عن سلامة لغة القرآن. وكنا ذكرنا كثرة المفردات العربية التي تسربت إلى عدد من لغات العالم، من غير أن يضيرها شيء.

أوهام المعربين:

ظُلم اللفظ المعرب مراراً، وما زال يُظلم؛ فهو ظلم قديماً حين جمعه القدماء، من غير أن يعتنوا بذكر أصلِهِ أو تتبع جذره. فانبرى أدعياءُ من بعض الأمم يَدَّعون نسبته إليهم. وظُلم كذلك حين جمعه القدماء وما كانوا يحسنون لغاتٍ أخرى. وظلم ثالثاً وأخيراً حين انبرى له المحدثون يكتبون عنه ويشرحون، وهم به جاهلون.

فقد ضاعت أصول كثير من المفردات المعربة والدخيلة، لفقدان أصولها في لغات الأمم المنسوبة إليها؛ فلم يكن للإغريق معجمات، ولا للسريان، ولا

للفرس حتى يتمكن علماء التعريب من التثبت. وكثيراً ما نقع على كلمات قالوا إنها معربة عن الفارسية أو اليونانية، وحين ألفت معجماتهم لم نجدها في لغتهم، أو قالت معجماتهم إنها عربية، في حين أن اللفظة تنطق من نفسها بأنها معربة.

ولعل لغموض هُوِيَّة بعض المفردات سبباً آخر، هو تغير نُطقها مع مرور الأزمان. لذا صار طبيعياً أن يقف العلماء حائرين أمام بعض المفردات، وأن يتردَّدوا في نسبتها فواحد يقول: هي يونانية، ولعلها تكون لاتينية أو بيزنطية تحت اللواء الإغريقي. وذلك يَدَّعي أنها سريانية، وربما تكون منقولة من اليونانية إلى السريانية. أو يقول: بل فارسية، وقد يعود أصلها إلى الهندية أو أي لغة من اللغات الشرقية، ولكنها جاءت إلى العربية عن طريق الفرس.

وهكذا ضَلَّت اللفظة عن أصلها، لكن الثابت أن العربية احتضنتها، ورعتها، وطوَّرتها، ودونتها في معجماتها.

علماً أن معظم علماء التعريب قديماً استهواهم التنقيبُ عن اللفظ القديم، خدمة للفصيح، فأقبلوا على هذه المفردات الدخيلة يجمعونها، ويتتَبَّعونها قدر طاقاتهم، ويدوِّنونها خدمةً جُلى لمن بعدَهم، لكنهم لم يُقبلوا على تعلم إحدى تلك اللغات المجاورة، إلا مَن كان منهم من أصول فارسية كالزمخشري والثعالبي والفيروز آبادي. وكانوا جميعاً يتحلَّون بآذانٍ ذات حاسَّة خاصة بمعرفة الدخيل وتمييزه من الصريح. ناهيكم عن أنهم ما جمعوا إلا جزءاً قليلاً من كمٍّ لفظي كبير، توافدَ عبر القرون.

وانساق عددٌ من المؤلفين المحدثين إلى التأليف في مجال التعريب من غير أن يُحسنوا لغة شرقية أو قديمة تساعدهم على كشف بعض جذور المعرب والدخيل، وبالتالي نقصت عندهم هذه الحاسة الذوقية التي تمتَّع بها العلماء القدماء، كما أن بعضهم لم يكن من المتخصصين بعلوم اللغة العربية، وكان منهم علماء أكارم أفذاذ في مجالاتهم العلمية، بينما أقلُّ ما يقال في أعمالهم في مجال كشف المعرب والدخيل أنها ليست من اختصاصهم، ولا يعرفون الكلمة

من المصدر، أو الفعل من الاسم. ولهذا نراهم يستغربون وجود كلمات فارسية ذاتِ معنى حقيقي، ثم تطور هذا المعنى إلى معنى مجازي ذي طرافة، ناسين خصائصَ الأمم في صناعة ألفاظها وتوليدها، وغير مدركين مثلاً أن اللغة الفارسية تعتمد كثيراً على تركيب كلمتين أو أكثر لمثل هذه المعاني، بسبب قلة المفردات في لغتهم من جهة، وبسبب ميلهم هذا. ولهذا نرى هؤلاء السادة العلماء لا يتقبّلون كلمة «ديباج» أن يكون أصلها الپهلوي مركباً من «دِيوْ: شيطان» و«باف: نسج» من المصدر «بافْتَن» والمعنى الأصلي هو نسج الشياطين، ثم صار المعنى: نوع من الحرير الفاخر، والتي عربت بمعنى الحرير الغليظ، واشتق منها الفعل دَبَّجَ بمعنى نَقَشَ، والديباجة: المقدمة الأدبية للرسائل وبعض الموضوعات.

ومثلها كلمة «ديوان» والتي عربناها بمعنى كتاب الشعر، والإدارة. ويرون أنها مركبة من «دِيو: الشيطان» و«آن: علامة الجمع الفارسية»، فغدا المعنى الأصلي: الشياطين. وكان عمل كتّاب الدواوين كعمل الشياطين. أو أن كلمة «طنبور» وهو الآلة الموسيقية المعروفة أصلها «دُنْب: الأَلْية» و«بَرَه: الحَمَل» أي ألية الحمل، أوَليست آلة الطنبور شبيهة بالأَلْية؟

وأزدادُ عجباً من استغرابهم أن تكون «آذربايجان» فارسية ولا تكون عربية! تصوروا فلماذا ندعي عربيتها وهي اسم أرض في بلاد العجم منذ آلاف السنين، وليس للعرب بها علاقة؟

ومهما قلنا في هؤلاء الأعلام مع تقديرنا التام لكل ما يقومون به، فإننا نراهم يحترمون ما يَدْأبون عليه حِفاظاً على مكانهم الرفيع. لكنَّ ظاهرة جديدة مؤلمة طرأت في السنوات العشر الأخيرة، على موضوعات بالدراسات العليا في بعض الجامعات العربية؛ فقد دفعت فئةٌ من الدكاترة طلابها لدراسة ظواهر التعريب عند شاعر عربي كالأعشى أو في قضية أدبية، لمجرد أنهم يرغبون بإدلاء دَلوهم في هذا الموضوع الخصب. فيبحث الطالب وينقل ويكتب، ويدقق له المشرف ويصوِّب ما كان تلميذه نقله، وكلاهما لا يُحسن واحدة من اللغات القديمة، ولا

سيما الفارسية.. وينجح الطالب، ويتباهى المشرف.. من غير معرفة!

أما مراجع هؤلاء وأولئك فما ذكرته المعجمات العربية، وما جمعته كتب التعريب، ومعجمات اللغة الفارسية الحديثة الثنائية اللغة. وإذا جَمع علماؤنا الأوائل الأكارم، كالجواليقي والسيوطي والخفاجي، المعرب والدخيل، وهم معاصرون لمرحلة التعريب أو يُدانونها، وتَملكوا ناصية السليقة، واعترفوا في كتبهم عن عجزهم وشكهم أحياناً، فإن المحدثين استندوا إلى هذه الشكوك، وجعلوها ثوابتَ ورواسخ، وبنوا عليها أحكامهم. وقد رأينا العلامة أحمد محمد شاكر كيف كان يجادل الجواليقي، وكيف كان الخفاجي يجادل الفيروز آبادي في لغته الأصلية، وكيف جادلني من نال درجة الماجستير في المعرب عند الأعشى وهو يجهل الفارسية. وهذا صلاح الدين المنجد المحقق الدقيق، ومن أوتيَ كفاءة علمية مرموقة، يتعرض كذلك للمعرب، وينقل من المعجم الذهبي، فيشير حيناً إلى مصدره ويتناساه حيناً. وهذا ما فعله خير الدين الأسدي على علمه.

هذا جانب مما غاص فيه المعربون القدماء والمحدثون، والمنابع التي نهلوا منها، والنتائج التي توصَّلوا إليها، وكلُّ ذلك خير قليلاً كان أو كثيراً.

ولا بدَّ لي بعد أن عرضت نشأة التعريب، وقواعده، وبعد أن تعرضت لإسهامات العلماء القدماء والمحدثين في عملية تدوين المعرب والدخيل، أقول: لا بد لنا بعد هذا من أن نلج تراثنا، ونحدِّد ما عربناه من الأمم قديماً، ونحدد أنواع هذه المفردات الدخيلة، ومدى أهمية وجودها في لغتنا وآدابنا وعلومنا وثقافاتنا.